حزنة لرجل نصف ميت ..

قصة بقلم أحمد خلف

ليل . في غرفة مستطيلة ثمة رجل في الخامسة والعشرين من عمره . يتمدد فوق سريره الخشبي . وقبالته على الصفحة الجدارية ، تماما ، يتأرجح بندول ساعة حائطية . يهتز كخيط هزيل . مثل حبل مشنقة . يتراقص ببطء نحو جهة الشمال وبالعكس . ينتهي بانتفاخ كبطن حبلى من الاسفل . انه يضرب للمرة الثانية دقاته (البندول) في الرأس . يحدق مليا (الرجل) في المرآة الصغيرة . يبصر الوجه المشوه بسبب النابالم وقد مسخه كلية ، لم يعد في ميسوره التعرف عليه . أيصح ويكون هذا وجه رجل في الخامسة والعشرين ؟ ترى كيف سمح لهم بذلك .. بدت البثور موزعة بلا انتظام . يحس كما لو أخذ على حين غرة . قال بداخله ـ لقد باغتوني ، القوادين .. وهو يعلم انها فعلته الاولى وقد اخطأ التصويب . وكانت الاهداف معلنة . موزعة امامهم . ترى هل ترك ذهنه يهرب نحو جهة ما في العالم ؟ ولكنه يتذكر جيدا : ان الدنيا بأسرها تحولت بين اصابع القنابل والقاذفات ، الى امرأة تخلت عن كل شيء بسبب الجزع الذي سقطت فيه . تركض بسرعة جنونية باتجاه الشيخوخة . ثم الموت . سقوط نهائي في حفرة الظلام الرهيب . بالتأكيد عاش هناك بوعيه وقد مارس لعبة الدفاع قبل الهجوم وملاحقة الطائرات وهي ترمي حممها عليهم ولم يعد ليذكر اين وقف رقاص الساعة بالضبط لكن بندولها لم يصمت برهة واحدة . يطرق في المخ يضرب . يضرب : ـ بشكل تعسفي راح يستسلم لرفسات مذعورة وسط فوضى لا بشرية مستميتة في انتزاع الحكم من بين انياب الوحش . يا الهي . وحاول جهرا العودة الى الصحو الذي مارسه بصورة موفقة .. أرق الليل الماضي واضح على شواهد الوجه والعينين الصغيرتين . قال له العريف (قبل اندلاع الحرب) : ـ

احذر التفكير في شيء ما ..

قال سلمان : ـ ماذا تعني بالضبط ؟

ـ ستجد نفسك جبانا

لكني رجل مدفعي يا حضرة ...

ـ نعم ، وماذا عن الاطلاقة الاولى ؟

ـ انها لي حتما !

ـ شرط ان لا تدع ذهنك يسرح .

داخل الحفرة . فكر : ـ اني لا افكر بشيء وبقي بانتظار الاشارة لكي يطلق .. يثني ساقيه الهزيلتين تحته . يصنع منهما خطا منكسرا . وقوس جذعه ناحية الامام وحشر في « سبطانة » المدفع قذيفة مدهونة بالزيت .. كان الجندي الاخر يتهيأ لاعداد قذيفة جديدة تنتظر دورها في الارسال . خطابات .. خطابات (لم يعد يفصله عنهم ـ الاعداء ـ سوى هذه المسافة من الارض والهواء) . حسنا ينبغي ارسال الخطابات الساخطة : القذائف . عندما يحين زمنها الملائم . انه الان .. أما أن يبقوا بعيدين عن بعضهما ، ذلك ما يخشاه . هذه الاونة أطلق لتوه قذيفته الاولى وبركبتيه استمر يحفر أرض الحفرة الترابية . بجسمها هشة ولينة . كان يضحك حين أطلق الثانية حالما قذف الثالثة كاد يصرخ . لكنه توقف عن الحركة . ومن حوله ساد صمت كثيف . التوى على نفسه واخذ بالانين فقط . وعام في جوفه . حلقه . بلعومه ايضا قيء حار يختلط بألدم النازف من اسنانه وجبهته بينما راح بوزه يمسح تراب الحفرة .. ولعق اكثر من حفنة رمال رطبة بينما كف الجندي الآخر نهائيا : عن تنظيف القنابل وحشوها في السبطانة . لقد اعلن بصمت ان مهمته انتهت . وها هي الدنيا تنقطع دورتها عند المنتصف.

وهذه المرة أخذ يفكر بسرعة مضاعفة . ولحظها : ـ تركض امامه «المرأة» متجهة صوب النهر ووجد نفسه يتبعها . يلاحق ظلها المتخطي لوجوده هناك (بعد صمت المدفع وتعطيل الحرب بالنسبة له) وهي تقذف ثيابها في الهواء . ها هو ذا يصرخ بحدة أشبه بعويل مستغيث : ـ انك تتعرين . انت طالق . طالق . طالق .. لم تعد تسمعه وهي تجتاز الشارع الترابي الممتد حتى نهاية النهر الذي اختلطت ألوانه . احمر بلون الفرين . أتكون هذه دماءه ؟ ربما كان ذلك نزيفا يتخفى تحت أصوات القذائف . واستطاع ظله الراكض تحت وهج حرارة الصيف . يختلط بظلها ، ومرقت لحظة حاسمة من الجري السريع وسط المياه الملونة . أصبح في ميسوره القبض على ذراعها الايسر . وقد كفت عن قذف ثيابها في الريح . تخفي وجهها العريض بين نهديها . صرخت به : دعني أسبح في هذا النهر الجارف ..

توقف لهاثه السريع فجأة وهدأت اعصابه كما لو وضعها تحت تيار بارد . بطؤت ضربات قلبه تحت ابطه الساخن . ترى هل كانت تخدعني اللعينة . وهو يدفن المرآة الصغيرة تحت وسادته دفع مؤخرة الرأس ليستقر فوق المخدة . دخن بشراهة . ولاحقت نظراته قطع الدخان ، حيث تقع النافذة . اسند خده قليلا الى الجدار . تحسس رطوبة تسري بين أوردة الجلد ، لهذا تبسم داخله بفرح مشبوب بعاطفة ساخنة .. وكانت عربة الجنود قد تجاوزته نهائيا (قبل رحيلها وقبل اندلاع الحرب) ينظر الوجوه العديدة المتقابلة حيث الشحوب يطوف في العيون . يحسهم كما لو استهلكوا اكثر مما ينبغي . قال أحد الجنود ـ لعلها لن تحدث . قال سلمان : ـ معي . هل تخاطبني ؟ .

قال الجندي : ـ كلا . اعني الحرب .

ـ احذر ان تفكر بشيء ما .

ـ لقد ودعني اهلي حتى المعسكر .

ـ اني اكره الاهل .

ساجد امي ميتة من الحزن .

ـ ليت هذه الحرب لن تصير .

قال سلمان : ـ اني أكره الحديث .

وكانوا قد اخذوهم في الناقلات . محتضنا كل واحد منهم جراحاته وأوسمة الحرب معا . قال في داخله (بعد نهاية الحرب) آه وجهي . لقد شوهوه بالمرة . ثم وضعوه في العربة . استقر جسده فوق فراش مهترىء وقد دثروه جيدا .. أسبل ذراعيه بين جنبيه . ولم يعد ليصدر عنه أي صوت . فقط كان يحلم بزوجته الصغيرة تضع شالا أبيض فوق رأسها . بتمنى لو تخلعه ليستطيع ملامسة شعرها اللين . ليمسح أصابعه في خصلاتها الملتمعة تحت ضوء المصباح (بعد نهاية الحرب في الطريق الى العاصمة) الكهربائي ، حيث تقع الساعة الجدارية في الجهة المقابلة لنفس المصباح . حزمة من الجنود المصابين بشظايا القنابل والرصاص ، يبصرهم يلتفون حول دمائهم . وها هي الاكف والاصابع تسبح ببرك الدم الملطخ بها قاع السيارة العسكرية : ـ لم تعد صالحا للخدمة . يتأوه . ترى من أين يأتي الصوت الغامض . يخترق جدار سمعه . يمزق وعيه الان . يعيده مرة اخرى ذلك ما يحسه سلمان بشكل واضح (عبر حركة الناقلة الطويلة التي تكدس داخلها الجنود) كان الصوت يتكلم معه بخفوت وهدوء : ـ أكنت في الحرب يا سيدي ؟

ـ نعم . لقد خضتها حتى النهاية .

ـ هل هذه تجربتك الاولى ؟

ـ من أين عرفت ذلك ؟
ـ هذا واضح جدا .
يصمت قليلا وينقطع الصوت عنه . ينفتق جرح آخر داخل نسيج شرايينه المرضوضة . يظل تحت وطأة ألمها المض . مرة أخرى يجيئه الصوت ناميا على شفرات جروحه المزقه . يتضح الصوت أكثر يخاطبه هذه المرة بمودة ظاهرة : ـ هل تشعر بالاسف يا سيدي ؟
ـ أسالك عن لون العالم .
ـ أحمر مثل نهر من الدم .
ـ والنساء كيف عهدك بهن ؟
ـ لي زوجة واحدة .
ـ هل تحبها يا صديقي ؟
ـ انهـا زوجتي .
ـ حسنا ، والاطفال ؟
ـ لم تنجب لي منهم أحدا .
ـ أوصيك بالانتظار .
يتوقف محرك العربة الطويلة عند باب البيت وكانت قد زفرت عطسة قوية حين خرجت ثلاثة وجوه شاحبة . بعض الشيء . لكنه استطاع رؤيتها مخفية جسدها « زوجته » وراء هيكل العجوز وسحب ساقيه نحو الارض . أختلط في رأسه أكثر من وميض ساخن ، ما الذي ستقوله لي ؟ بالاحرى ماذا يجب أن أقوله أنا ؟ كل حسب سجيته . باعتقادي انت تخطىء الهدف . هل فاتت العربة من هنا . من هناك . ولكن لماذا أصفرت الوجوه الثلاثة ؟ وبصورة واضحة وعبر ضوء المصباح الخارجي للبيت تمكن من سرقة نظرة منهم . لقد بدأوا يلتصقون ببعض كما لو شعروا برعب ما . يهاجمهم . قذف ساقيه قليلا وخطا . وعبر المسافة الفاصلة بين الناقلة والبيت أراد أن يعرف لون المصفحة الاسرائيلية التي اخرسها العريف بقذيفة واحدة : تعطل صوت العالم.. وتمتم بحشرجة مؤلمة : دعوني أدخل أولا . بكت الام بين يديه وعلى نشيج صبياني بينما احتفظت الزوجة الصغيرة بشحوبها الواضح . ركضت أكثر من غمازة فوق خدها . حيث دفعت خصلة سوداء ضخمة وراء عنقها واستطاع توزيع نظراته الخائبة عليهم . الام تلتف حول نفسها . وقفت زوجته قبالته تسند كتفها الى حائط الغرفة المستطيلة يتدلى فوق رأسها تماما بندول الساعة الطويل . يهتز ببطء . حبل المشنقة سائب في الريح . يتأرجح الحبل الطويل ليعري الفواصل بين زمنه . كما لو يتجمع العمر دفعة واحدة مقابل لا شيء . فقط حبل أملس لساعة حائطية يتأرجح بين فكي الزمان . انه زمنه هو فقط . ولم يعد يعني أحدا ما في العالم . ها هو ذا في الحاضر ايضا كما في الماضي . ساق في الحرب واخرى في الغرفة . ذهن يتوزع عند الزوايا والاركان . في الجهات الاربع حيث تنتهي أخيرا بشكلها البيضوي لتدور دورتها الكاملة .. وعلى وجهه أصطدمت اصابعه بالبثور التي خلفها النابالم له . وثمة صديد بارد يتساقط على هيئة قطرات لزجة بين مشطي الاسنان . وبرعبة صافية تمنى لو يدخن ، لكن ذلك اسقط من حقه وجعل جسده يتمدد فوق سريره الخشبي ، وبدأ لتوه يتنفس هواء غرفة نظيفة . ليس كما حدث في الحرب أبدا . في الحرب تعم رائحة غازات سامة ودخان كثيف . وموت سريع يجتاحهم . وحين أشار عليها ان تقترب منه ترددت باديء الامر الا انه امسك ذراعها . سحبها برفق نحوه . كانت تتكلم : ـ هل ستبقى هكذا ؟
ـ لقد منحوني مسدسا .
ـ وجسدك هل أصيب باذى ؟
ـ حلمت بك مرتين في الحرب .
عدلت الزوجة الصغيرة من وضعها أصبحت في مواجهته مباشرة بينما ارخت ذراعيها فوق الفراش . كحبلين فضيين يتدليان أمامه . قالت الزوجة الصغيرة : ـ أنت متعب ، الافضل لو تصمت .
ـ سمعت اغنية رددت اسمك .
ـ ماذا ستفعل بعد الان ؟
ـ هل حدث ذلك صدفة ؟
ـ يا الهي ، أتنوي أن تبقى هكذا !
ـ تمنيت لو ترين القتل هناك .
ـ أنت تقتلني الان .
أصوات المدافع تخترق المكان . لم يعد يظهر من وجهه شيء ما . فقط كانت عيناه تنشران ظلالا من الضوء الخافت . اصوات بعيدة وقريبة تمتزج بسمعه تتكاثف . وهو ليس نائما ولا يقظا كان يتأوه بفعل جراحه واحتراق فتيلة النابالم . حيث لم يعد يتذكر سقطتها الاولى . وظلت زوجته تحدق به : ـ اني في العشرين من عمري .
ـ وكنت عارية تماما .
ـ وتريدني ابقى معك زوجة .
ـ وركضت وراءك بقوة رجل مدفعي .
ـ اني لا اطيق ذلك ابدا .
ـ وصحت بك انت طالق . طالق . طالق .
العجوز عرت امامه . الاب ظل صامتا لا يحرك طرفة عين ، بينما اختفت زوجته عنه كلية . حبل المشنقة الطويل عاود تأرجحه ثانية ليعلن دقاته الثلاث برتابة . تجسدت في عينيه . يتدلى . يضرب الوقت في موضعه . هواء ساخن ينتشر تحت جلده . يتمشى مع دمه. وبين اصابعه المتوترة مثل خيوط قوية لنسيج من المطاط . وبارتباك شديد يستدير نحو مخدته يشد أصابعه الاربعة حول مقبض مسدسه . يطمئن لوضعه تحت الوسادة . اسرائيل ايضا كانت هناك . النابالم . مواضع الجنود . فوهات المدافع . لم يعد صالحا للخدمة . العرب مقذوفون بالقنابل الحديثة . تصير الدنيا طيرا مذعورا . يتضاعف عدد الطيور ، تتجمع حول بعضها ، لتنحدر نحو الاردن . وباتجاه الصحراء تعبر أرض الدائرة « طيور أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل». وجوه صفراء خائفة تركض نحو اللاشيء . خطرات هاربة يزداد ثقلها على سمعه . خطوات بطيئة . خطوات .
ليل . يمتد كبساط أسود . ويظل الضوء يرشح فوق جسده من الاعلى . ليس ثمة أحد معه في الغرفة رقاص الساعة يدور دورته . بندولها الطويل يهتز : يركض مع حركة الدم . مع جريانه السريع تحت جلده الضيق بين صندوق الجمجمة وصفحة الوجه المشوه مع خطوات الزوجة الصغيرة وهي تتجه نحو بطنه « خطوات » تعتلي أسفل البطن منحدرة باتجاه صدره يزداد ثقل اقدامها عليه تدوس فوق سطح لين من اللحم ، يحس كما لو سقط تحت تأثير كابوس رهيب . زنجي لعين يقبض على عنقه بقوة . يشتد التطويق مع الخطوات وهي تدوس الصدر . اصابعه تتجمع حول مقبض المسدس . يرفعه قليلا . نحو الساعة الجدارية . تتضاعف الخطوات . اقدام امرأة في العشرين من العمر لم تنجب له طفلا واحدا . ينتفض سلمان من فوضاه ، بينما تطلق فوهة المسدس اطلاقاتها الثلاثة . تخترق زجاجة الساعة الطويلة، تترك وراءها ثلاثة ثقوب عريضة تهشم الهيكل الملاصق لنظاراته ويهدأ كل شيء من حوله . بينما توقف بندول الساعة عن تأرجحه المستمر في الرأس .

سقوط الأقنعة ..
ديوان جديد
لشاعر المقاومة في الارض المحتلة
سميح القاسم
صدر حديثا : ٢٠٠ ق٠ ل